الرؤية الكونيّة أساساً للتعاون بين الأديان

الرَّحمة والتعارف والأخلاق

عبد الله بن محمد السالمي ■

في العلاقات بين البشر لا بد من وجود رؤية كونيّة تؤطرها؛ تمتد أفقاً بين جميع البشر، وتتكامل اتساعاً وعمقاً بين أطياف المجتمع الإنساني دون استثناء، على نسق معرفي متمكن، ومن أجل تحقيق مهمتين:

الأولى: فهم الكون على المستوى العام، والإنسان الفرد على المستوى التفصيلي والخاص.

والثانية: بناء وتركيب تلك العلاقات في بعديها الاجتماعي والإنساني.

ولا تعني هذه الرؤية الكونيّة إلغاء الاختلاف والتنوع في العالم، أو عدم اعتباره وتجاهله، بل تتساوق هذه الرؤية مع النظام الكوني القائم أساساً على قاعدة الاختلاف والتنوع، فأكدت النصوص القرآنية على مظاهر الاختلاف في الكون ـ بلغت أعدادها في المجال الإنساني خمساً وثلاثين آية ـ : منها على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۞

■ وزير الأوقاف والشؤون الدينية في سلطنة عُمان.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر: 27 ـ 28].

وأكدت النصوص أيضاً على وحدة الأصل الإنساني كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [النساء: 1]، واقتضت الحكمة الإلٰهية جعلهم مختلفين أمماً وشعوباً وقبائل متعددة قال الله سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ [يونس: 19]. بل جعل مرد الاختلاف إليه تعالى: ﴿ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [آل عمران: 55] وقال: ﴿ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [البقرة: 113]، وغيرها. ومن المهم الإشارة هنا إلى أن خمس عشرة آية من مجموع الآيات التي تناولت الاختلاف بين البشر، أكّدت أيضاً على أن الله سبحانه هو الذي سيفصل بين الناس فيما هم فيه مختلفون.

وللمفسر الشّيخ محمد الطاهر بن عاشور رأي جيد في هذا السياق، يقول: «وإذ قد كان أشرف ما على الأرض نوع الإنسان قرن ما في بعض أحواله من الآيات بما في خلق الأرض من الآيات وخصّ من أحواله المتخالفة لأنّها أشد عبرة لأن فيها اختلافاً بين أشياء متّحدة في الماهية ولأن هاته الأحوال المختلفة لهذا النوع الواحد تجد أسباب اختلافها من آثار خلق السماوات والأرض فاختلاف الألوان سببه اختلاف الجهات المسكونة في الأرض، لذلك فالظاهر أنّ المقصود هو آية اختلاف اللغات والألوان وأنّ ما تقدمه من خلق السماوات والأرض تمهيد له وإيماء على انطواء أسباب الاختلاف في أسرار خلق السماوات والأرض».

ولابن سينا الفيلسوف نظرية صحيحة في أن: «اختلاف أقدار الناس وتفاوت أحوالهم سبب بقائهم»، فيقول: «ثم مَنَّ عليهم بفضل رأفته منّاً مستأنفاً بأن جعلهم في عقولهم وآرائهم متفاضلين كما جعلهم في أملاكهم ومنازلهم ورتبهم متفاوتين لما في استواء أحوالهم وتقارب أقدارهم من الفساد الداعي إلى فنائهم لما يلقي بينهم من التنافس والتحاسد ويثير من التباغي والتظالم».

ولذلك، تتأكد الحاجة إلى رؤية كونيّة بسبب مرور المتغيرات الإنسانية الكبرى، واضطراب الحال البشري، وما يصاحب ذلك من تحديات في مصائر العالم واتجاهاته، وعلاقات البشر، وإنّ متابعة هذه المتغيرات كلّها ـ أياً كانت التسميات التي أُطلقت عليها ـ هي التي دفعتنا في مطالع القرن الحادي والعشرين إلى العودة للثوابت الفطرية الإنسانية وسط ظواهر ومظاهر القلق وعدم الثبات، وفي طليعة تلك الثوابت تجدد أطروحة التعارف، التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم بوصفها الغاية من الوجود الإنساني، على الرغم من الاختلاف والتنوع: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: 13]. وقد لفت الله سبحانه إلى آفاق التعارُفَ وإمكانياته وغاياته في آيةٍ أُخرى عندما قال: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [البقرة: 148]. وهكذا فالتعارُفُ ـ كما يعني الاعتراف بالآخَر وجوداً إنسانياً ومصالح ـ يعني أيضاً التوافق على ما هو الخير، والتنافُس الهادئ والعقلاني في الوصول إليه. والجانب الثالث من جوانب التعارُف قولُهُ تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ [البقرة: 83]. وهذا يعني التعامُل بالقول والفعل مع الآخَر على أساس الخطاب الحَسَن أو المعروف، والمعروف ما يعرفه الجميع؛ لكنّ الدعوة إليه تتطلب الشجاعة والمبادرة؛ وذلك لأنّ المعروفَ احتسابٌ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الحجرات: 10]. وإذا كانت الرحمة الشاملة هي أساس علاقة الله سبحانه وتعالى بالبشر جميعاً عنايةً وهدايةً وخلاصاً، وإذا كان التعارُفُ والمعروف أساسَ أو قاعدة علاقة البشر بعضهم ببعض؛ فإنّ «مقاصد الشريعة» أو «الضروريات الخمس» المعنية بالحقوق والالتزامات (حق النفس، وحق العقل، وحق الدين، وحق النسْل، وحقّ المِلْك) هي العملُ أو السلوك أمام الناس على مستوى العالم. وهذه المبادئ في العمل مع الناس هي التي سمّاها ﷻ بِرّاً وقسْطاً في قوله:

لفت الله سبحانه إلى آفاق التعارُفَ وإمكانياته وغاياته عندما قال: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾. وهكذا فالتعارُفُ ـ كما يعني الاعتراف بالآخَر وجوداً إنسانياً ومصالح ـ يعني أيضاً التوافق على ما هو الخير، والتنافُس الهادئ والعقلاني في الوصول إليه.

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: 8]. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ معناه: «إن الله يحبّ المنصفين الذين ينصفون الناس، ويعطونهم الحقّ والعدل من أنفسهم، فيبرّون مَنْ برّهم، ويُحْسنون إلى مَنْ أحسن إليهم»، قاله الطبري في تفسير هذه الآية.

ومن جهة أخرى، حاول بعضُ الباحثين الاستراتيجيين جمْعَ تلك الظواهر الطبيعية والإنسانية المتنافرة تحت مصطلح (العولمة)؛ بينما سمَّى آخرون الأزمنة الجديدة أزمنة ما بعد الحداثة. ومع ذلك ظلّت كل التشخيصات قاصرةً؛ فالعولمة أو أنّ العالم واحد وأنه صار بمثابة القرية الكونيّة؛ هذا التصور ليس جديداً؛ فالفيلسوف الألماني كارل ياسبرز تحدث في خمسينات القرن العشرين عن الزمن المحوري Axial Age، وهو يعود من وجهة نظره إلى القرن الثامن قبل الميلاد؛ حيث توحَّد تاريخ العالم، وتوحدت آليات حركته. وإذا كان المقصود بالعولمة حريات انتقال السِلَع؛ فإنَّ انتقال الأشخاص ما يزال شديد الصعوبة. بينما يشير مصطلح «ما بعد الحداثة» إلى الانتقاض الذي نزل بمبادئ وعقلانيات الحداثة التي ظهرت في القرن التاسع عشر، وقام عليها نظامُ العالم الذي تكوَّن من دولٍ قوميةٍ، فشكَّل ذلك وحداتٍ منفصلةً يحكُمُها توازُنٌ عقلانيٌّ في المصالح والتبعات، وعلى أساسه قام النظامُ العالمي المتبلور في ميثاق الأمم المتحدة، والإعلان العالمي لحقوق الإنسان. بَيْدَ أنّ ذلك لم يمنع من سيطرة أجواء الحرب الباردة، التي يقال: إنها حفلت بالحروب الصغيرة دون الحروب الكبيرة شأن الحربين العالميتين الأولى والثانية. فزمنُ ما بعد الحداثة هو الحقبةُ التي انتشرت فيها الاختلالات، سواء في طرائق التفكير والتدبير، أو في التأثيرات المتضادة في وسائل الاتصال، وتفاقم نفوذ الآلة والعقول الاصطناعية، والحقائق الاعتبارية.

ويتحدث البعض عن «عودة الدين» في زمن العولمة بدليل انتشار الإنجيليات الجديدة، والإحيائيات الإسلامية، والنهضات البوذية والهندوسية؛

وكلُّ ذلك ما كان جديداً؛ لكنّ الوسائل الإعلامية الجديدة أمكنها متابعة هذا الأمر في سائر الأديان، سواء من حيث الإقبال على التعبديات، أو التغييرات في اللبـــاس أو الهيئة، وتغيرات المواقـــف من الآخر باســـم الدين، وأخيراً استعمال العنف باسم الدين أيضاً، والمزج بين الدين والقومية!

إنّ الرؤية العالمية ـ رؤيـــة الرحمة والتعارف والمعـــروف ـ تحتاج في نشْرِها والعمل عليها إلى التعاون والشراكة. فالمسلمون ـ مهما بلغ اقتناعهم والتزامهم وانتشارهم ـ لا يستطيعون وحْدَهم إنجاز المهمة من دون التعاون مع شركاء يشاركونهم القناعات نفسها. وقد طلب منا القرآن الكريم أن نقول لسائر الناس حُسْناً؛ لكنه أوصانا أيضاً بالتعاون الحثيث مع الجميع، والتعاون بالطبع هو على الخير: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ [المائدة: 2]. وحتى في حال الاختلاف؛ فإنه ســـبحانه أوصانا بألَّا نجادَل إلَّا بالتي هي أحســـن. وهذا لسببين: الإيمان برســـالة الرحمة الإلٰهيـــة، واللقاء على المؤتلف الإنساني، وسلوك التعاون تجاه الشركاء في العالم في رسالة الرحمة والجوار والضيافة. وإنّ هذه الرؤيـــة الكونيّة ـ التـــي عمادُها الثقةُ برحمـــة الله، ومقتضياتهـــا التعـــارف والخيـــر والمعروف والبر والقسط ـ هي أساس الاحتكام مع سائر بني البشر.

إنّ الرؤية العالمية ـ رؤية الرحمة والتعارف والمعروف ـ تحتاج في نشْرِها والعمل عليها إلى التعاون والشراكة؛ فالمسلمون ـ مهما بلغ اقتناعهم والتزامهم وانتشارهم ـ لا يستطيعون وحْدَهم إنجاز المهمة من دون التعاون مع شركاء يشاركونهم القناعات نفسها.

ثم إنّ هذه المتغيرات في العالم، والتي تسير بخُطى متسارعة لتجاهُل إنسانية الإنسان لصالح وسائل الاتصال، والذكاء الاصطناعي، والممارسات الأُخرى تدعونا جميعاً ـ ليس إلى اللقاء فقط؛ بل وإلى توجيه رسالةٍ قويةٍ من أجل إنسانية الإنسان وسلام العالم. الأمر الثالث في آية الكلمة السواء ينصُّ على أن ﴿ ..لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: 64]. واســـتناداً إلى هذه القاعدة، وإلى قاعدة أو ممارسة المودة والضيافة والجوار، والتي

تتجلى في الرسالة الإبراهيمية، رسالة البر والقِسط، توصلْنا إلى طرح ثُلاثية العقل والعدل والأخلاق؛ لتكُون مبادئ لميثاقٍ أخلاقيٍّ عالمي، يقوم عليه المؤتلف الإنساني. وعلى هذا يكون الانفتاح على العالم.

في مُثلّث العقل والعدل والأخلاق، النابع من الرحمة والتعارُف في النظر والتفكير، والبر والقسط في العمل والسلوك؛ يؤدي العقل مُهمة التأمل والمراجعة في خيارات ومجالات الخير والتعاون. ويستدعي ذلك مِنَّا عدم تقسيم العقول والأخلاد والألباب إلى عقول دينية وأُخرى علمانية؛ فالأمور متداخلةٌ في روح الإنسان وعقله؛ وبخاصةٍ في المجال القيمي والأخلاقي. وقد تحدث القرآن الكريم عن عدة نزوعاتٍ للنفس: الضالّة واللوامة والراضية والمطمئنة. وكلُّ تلك النفوس يختلط فيها الدنيوي والأخلاقي والمصلحي الكبير والآخر الصغير واليومي. بَيْدَ أنّ العقل الإنساني لا يمارس الإدراك والتفكير والتدبُّر فقط؛ بل يمارس التدبير أيضاً. والنزوع الأخلاقي الذي يشارك فيه الدين بقوة هو الذي يميِّز ويفاضل بين ممارسة التدبير في إنشاب الحرب العالمية الثانية مثلاً، وممارسته في ميثاق الأُمم المتحدة، والإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

أما القاعدة الثانية في المثلث فهي قاعدةُ العدل. والعدل من نواتج استقامة العقل وتدبُّره، وله جانبان: جانب الاستقامة الفكرية واعتقاد المساواة بين الناس، وفي الجانب العملي التدبيري: التزام جانب الأخلاق، بعدم التحيز للمصالح الخاصة أو الهوى والميل النفسي: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: 8]. الحيادية الصارمة التي تُطِلُّ على المساواة القيمية من جهة، وعلى البر والقسط من جهةٍ ثانية. والعدل ـ كما هو معروفٌ ـ قيمةٌ كبرى في سائر الأديان، وبخاصةٍ في الديانات الإبراهيمية، وفي خبرات سائر الأُمم. ولذلك لا يمكن إنكار أهمية ودور التفكير الديني في مسألة العدل، وموقعها القديم والمعاصر في المجتمعات والدول والأخلاق. وقد حاول فيلسوف القانون الأميركي جون راولز ربما التمييز وليس الفصل في كتابه: نظرية العدالة (1972)؛ وذلك

بيــن العدل والخيــر، فــرأى أن إنجــاز العدالة مــن مهمات الدولــة، أما المجتمعات والجهات الدينية والمدنية فيها فهي المنــوط بها إقامة مجتمع الخير. والواقع أنّ الدولة يقيمها المجتمع، ولها بالطبع وظائف محددة؛ لكنّ الخير والعدل ـ بوصفهما قيمتين لا تنفصــلان تماماً، وأن كلاً منهما ـ وفي ظروفٍ كثيرةٍ ـ تكون جزءاً أساسياً في القيمة الأُخرى. إنّ الدول الديمقراطية تتمدح كثيراً بممارســة حكــم القانون، وهو أمــرٌ جيدٌ ولا شــكّ؛ لكنْ حتى لا تصبح عدالة حكم القانون شــكليةً، لا بُد من التنبيــه دوماً إلى الأصول القيمية والأخلاقية للقوانين بما يقتضي التطوير باتجاه الإنصاف من جهة، وباتجاه التفاعل الخصب بين قيمة العدل وقيمة الخير من جهةٍ أُخرى.

النزوع الأخلاقي الذي يشارك فيه الدين بقوة هو الذي يميِّز ويفاضل بين ممارسة التدبير في إنشاب الحرب العالمية الثانية مثلاً، وممارسته في ميثاق الأُمم المتحدة، والإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

ولننظــر أخيــراً فــي القســم الثالــث من الثُلاثيــة: الأخــلاق. فالعقــل والعــدل مبــدآن وقيمتان، أمّا الأخــلاق، فأقصد بها هنا ســلطة الضبــط والانضبــاط فــي التدبيــرات العملية للمبدأين أو القيمتين، فالأخلاقُ هي التي ترعى مســألة الملاءمة والســياقات، ومتى تصلح هذه القيمة أو تلــك للإنفاذ في المجــالات المحلية والعاملية. فالسياق غير الملائم، أو التدبير غير الملائم يمكن لأحدهما أن يجعل القيمة غير ذات تأثير وفعالية أو ذات تأثير سلبي. وعندما أردا رسول اللّه صلواتُ اللّه وسلامُهُ عليه إظهار تأثير الأسلوب على القيمة والتصرف قال: «**وخالق الناس بخُلُقٍ حسن**». وهكذا فإنّ الأخلاق تتجه من ناحية إلى أســاليب التعامل والتواصل، كما تتجه من ناحيةٍ ثانيةٍ إلى المعروف أو المشــترك بين الجميع؛ ســعياً نحو إجماعــات أو اتفاقات تلقائية على ما هو معروفٌ أخلاقي، وما هو منكر غير أخلاقي.

ومن ذلــك المدخل حــول الرؤية الكونيّــة والحاجة إليهــا وبعد تبيان أهميتها في العلاقات الإنســانية؛ تنفتح ثلاثة مستوياتٍ للعمل في إطار تلك

الرؤية: مراجعة النفس، والسعي للشراكة الكاملة مع العالم، والعمل معاً من أجل خير العالم وسلامه. وهو ما يعني ألَّا نقف أو نتوقف عند حد معين في العمل من أجل الإنسانية وإصلاح ما يظهر من الخلل: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88].

هذه الثلاثية المهمة كونت الأرضية المناسبة لإطلاق مشروع المؤتلف الإنساني في أبعاده الشاملة، وبه تتشكل رؤية جديدة للعالم؛ ليس بدعاً في أنموذجها؛ إذ سبقتها أطروحات عديدة من أجل صلاح الإنسانية وإصلاحها، ولا تتقصد إلغاء مثيلاتها من المشروعات الإنسانية، بل تسعى إلى إضافة لبنة متجددة نحسبها الأشمل حتى الآن والأوسع في استيعابها للمجتمع الإنساني.